شرعة ومنهاج

عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

٥٦

سنن النصر والتمكين (٢)

لقاءات علمية مرئية (مفرَّغة)

الفهرس

سنن النصر والتمكين (٢) [١] ١

- الفرق بين السنن الكونية والسنن الشرعية ٢
- السبب الأول : العدل ٢
- أنواع العدل وصوره ٦
- الرد على دعوى المتطاولين : أين العدل ؟..... ٧
- السبب الثاني : الأخذ بالأسباب ١٠
- إلى من يتوجه خطاب الإعداد ؟ ١٢
- أهمية الإعداد المادي ١٢
- جهاد الدفع بلا عدة ١٣
- السبب الثالث : حقيقة الأعداء ١٤

١) رابط الحلقة
https://www.youtube.com/watch?v=pZ1_6_FM47g

الفرق بين السنن الكونية والسنن الشرعية

الفرق بين السنن الكونية والسنن الشرعية أن ما ظهرت علته وسببه فهو من السنن الكونية وهذا يندرج تحته أسباب السنن الكونية ، وأما ما خفيت علته فهو من السنن الشرعية من التوكل والدعاء كأن يدعو الإنسان الله تعالى الرزق والنصر والتسدسد والدعاء المجرد بلا أخذ سبب تعطيل لماديات فلا يتحقق له النصر فلابد من الأسباب الكونية والأسباب الشرعية ، فالدعاء سبب شرعي والعدة والعتاد سبب كوني .

وتعطيل الماديات كأن يدعو الإنسان بالولد والذرية بلا زواج ويسأل الرزق دون سير وضرب في الأرض فهذا سبب شرعي والأخر سبب كوني لابد منه ليكتملا .

ومن أسباب السنن الكونية على سبيل الإجمال : العدل – الأخذ بالأسباب – معرفة حقيقة الأعداء.

السبب الأول : العدل

السبب الأول من أسباب السنن الكونية للنصر والتمكين هو : العدل

أمر الله ﷻ بالعدل كما في قوله ﴿ إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل : ٩٠) وكذلك أمر النبي ﷺ بالعدل في مواضع عديدة سواء كان من جهة الحث والأمر أو كان من جهة النهي ، فالأمر والحث للفعل والمبادرة بالإجمال تارة أو بالتفصيل مثل العدل الذي يكون بين الأزواج فيما بينهم ، وبين الإنسان وعماله والخدم فهذه صور تفصيلية للعدل ، أو كذلك النهي عن الضد فقد نهى الله ﷻ عن الظلم وأوجد حب العدل قائم في النفوس بالفطرة وكراهة الظلم قبل نزول النص .

والنفوس مجبولة على الشح والانتصار للنفس والأثرة وحب الاستئثار بالشيء ، كما قال ﷻ ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ (النساء :١٢٨) فأوجد الله فيها من حب الطمع ما يجعلها تظلم وربما تقع في المحرمات بالغرر والتدليس والغش، فالإنسان بطبيعته يريد أن يدفع عن نفسه الضرر ويدفع عن نفسه العقوبة فالنفوس تكفلت بالدفاع عن نفسها لكن الإشكال فيمن يفصل بين الناس ويحكم فلابد من العدل في هذا ، قال ﷻ ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(المائدة :٨) فإذا حقد الإنسان على أحد وغل فوجب عليه التجرد عند الحكم والإنصاف ، والله ﷻ لا يمُكّن لظالم وبمقدار ورود العدل يكون التمكين والنصر .

والإنصاف مطلوب حتى ولو مع الأعداء فلا يجوز استباحة أموال اليهود ولا والنصارى إلا بما أحله الله من جهة أخذ حقوق الناس منهم وكذلك حق الله في الجزية وغيرها ، وينبغي أن يُحذر من الظلم ويحذر من المظلوم فكلما كان ضعيف انتصر الله ﷻ له فينتصر حتى للكافر لتمام عدله كما جاء عند الإمام أحمد عليه رحمة الله (اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا ، فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهُ حِجَابٌ)[٢] فالعدل كائن حتى في البهائم فيما بينها فلديها نوع من التكليف ولهذا يقول النبي ﷺ كما جاء (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ : لَتُؤَدُّنَ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[٣] لأن الشاة قد فطرها الله ﷻ على شيء تدرك به ما تحب وما تكره فيما بينها وبين نفس جنسها فقلما يبغي بعضها على بعض ، ولكن إذا اختلف الجنس قد يبغي أحد البهائم على بعض ولا عقاب فالسباع مثلًا لا تُحاسب على أكل الشاة فهذا هو العدل الفطري ، وكلما تقارب الجنس أدرك الكائن أمر العدل فقلما يبغي بعضها على بعض بالذي فطرت عليه ويحاسبها الله عليه ، وكذلك دواب الأرض من النمل والحشرات فما يلحق من ظلمك عليه لا تدركه لكن تدرك ظلمك على الإنسان وتحاسب عليه ، ولهذا قالت النملة ﴿ ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم ﴾ لأنهم لا يدركون ولو كنتم بشر مثلهم لأدركوا فأنتم أيها النمل مخاطبون أن تسلموا بذاتكم وتبتعدوا عن الإنسان .

٢) رواه أحمد (١٢١٤٠) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
٣) رواه مسلم (٢٥٨٢) والترمذي (٢٤٢٠).

ولهذا حرم الله ظلم الكافر ووعد بنصرة المظلوم ، كما جاء في الحديث قال رسول الله ﷺ (اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا ، فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهُ حِجَابٌ)[٤] وجاء أيضًا عنه ﷺ (ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حين يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها فوق الغمام ، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب -عز وجل-: وعزتي لأنصرنَّكِ ولو بعد حين)[٥] فلابد من النصر وهذا وعدٌ من الله ﷻ إلى أن المظلوم فلابد أن ينتصر لهذا يمكن الله للناس بالعدل مع الخلق ما لا يمكن لهم بالعدل مع الخالق ; فلو ظلموا في حق الله المحض من التوحيد به سبحانه لكن أعطوا حق الناس بعدم الظلم وعدم البغي بالضرب والحبس والقتل ، فكلما اكتمل العدل مع المخلوقين انتظمت منظومة البشر ولهذا من أعظم الأسباب الكونية للنصر والتمكين هو العدل ، لهذا الله يرزق الكافر كما يرزق المؤمن بمقتضى الربوبية فالأصل في الرزق هو الرزق على حد السواء ولهذا خلق الارض في بعض البلدان أشجار وأنهار والبعض فيها صحراء ، أوجدها الله قبل البشرية والبشرية هي من تتنقل ولهذا يقول الله ﷻ ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (الجمعة : ١١) يقول قتادة : "يرزق الكافر ولو كفر به ويرزق المؤمن وإن أمن به" .

ولهذا من أعظم الأسباب الكونية للنصر والتمكين هو العدل وأعظمه العدل مع الله ﷻ ثم العدل مع المخلوقين بإتيان الحقوق وعدم الظلم ، ولهذا أرسل النبي ﷺ أصحابه للنجاشي قال ﷺ (لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد)[٦] برغم وجود ملوك أقرب منه من جهة المسافة وأيسر كاليمن ودولة الجندل والمقوقس في مصر وفارس والروم وإنما توجه له للعدل الذي كان فيه ; فالله ﷻ ينصر بالعادلين ولو كانوا كافرين ما لا ينصر بالظالمين الطاغين ولو كانوا مسلمين .

---

٤) رواه أحمد (١٢١٤٠) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
٥) رواه (الترمذي ٥٨٠/٤) كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها ح(٢٥٢٦) .
٦) رواه البيهقي: كتاب السير، باب الإذن بالسير (١٨١٩٠)، وابن هشام: السيرة النبوية ٣٢٢/١، ٣٢٣ .

أنواع العدل وصوره

صور العدل كثيرة وصور الظلم كثيرة ومتعددة جدًا ، والتمكين يختلف بحسب الرسالة ويختلف باختلاف مراتب الناس فمنهم من هو حاكم قاضي أمير عالم قائد سجَّان .. وأعظم أنواع العدل هو عدل الحاكم مع الرعية والعموم فإن الله يُمكّن له ما لا يُمكّن لغيره ، ولهذا ذكر النبي ﷺ فيمن يظلهم الله بظله الإمام العادل كما جاء في الحديث (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ : إمامٌ عادِلٌ)[٧] والمراد بالعدل في الإمامة هو الإنصاف وعدم ظلم الخلق وعدم البغي لأن أثره عظيم فربما تسقط دولة بدعوة مظلوم سرت بالليل والناس نيام ، فجعل الله الوبال على الحاكم وعلى الأمة من تحته .

لهذا عدل الحاكم من الرعية آكد من عدل الرعية فيما بينها لأن أثره على الأمة أعظم ، ولهذا زكاة القدرة هي النصرة كحال زكاة المال فإذا كان ثمة قائد وحاكم مُمكَّن ولديه قدرة زائدة عن حماية نفسه وانتصر به مظلوم فإن الله ﷻ يعاقبه بمقدار خذلانه وما فات من زيادة عافيته له ولهذا يقول ﷻ ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ (هود : ١١٣) نهى عن الركون إلى الظالمين يعنى ثمة ظالمين وثمة مظلومين ومن يركن للظالم لا ينصر وترك المظلومين لا يجعل له ولاية فلابد من عقاب ، ولهذا (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا مِنْ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ وَمَا مِنْ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ)[٨] بمقدار زيادة النصاب عن القدرة الكافية له بمقدار خذلانه يخذله الله .

---

٧) رواه البخاري (١/٤٤٠) رقم (١٤٢٣)، وصحيح مسلم (٢/٧١٥) برقم (١٠٣١).
٨) أخرجه البخاري في " التاريخ " (١/ ١/ ١٠٩٤/٣٤٧) ، وأبو داود (٤٨٨٤) ، والفسوي في " المعرفة " (١/ ٣٠٠) ، وابن المبارك في " الزهد " (٢٤٣/ ٢٩٦) ، وعنه أبو نعيم في " الحلية " (٨/ ١٨٩) ، وأحمد (٤/ ٣٠) .

والدول تتباين من جهة القدرة ، والله ﷻ يعذر الضعيف ، كذلك إذا استدعى الله الأمة لنصرة المستضعفين فلم يجيبوا كان العقاب والخذلان ، كما استحث النبي ﷺ أصحابه لنصرة المستضعفين في مكة فقاموا خير قيام ، ولهذا يقول ﷻ ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ (التوبة : ٣٩) فالزيادة في القدرة والعلم والمال لابد أن ينصر به القوي الضعيف ولهذا ذكر الله التبديل وهو عدم الاستقرار وعدم التمكين وهو ضد النصرة كما في قوله ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ فتكون بمقدار الاستطاعة والقدرة في كل زيادة وقدرة أتاه الله إياها كما قال ﷻ ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة :٢٨٦) .

والسنن الكونية مرجعها إلى الله ﷻ وحكمها إليه فمعرفة البواطن ترجع إلى الله تعالى فيعلم ويرى وهذه الإدارة في الأمم دول تبدأودول تنتهي وقبائل تباد وتهلك وحتى الإنسان في أهله وزوجه يكون ممكن ثم يقلب الله عليه الأمور ، فما أقام الإنسان العدل في نفسه وأقامه فيمن تحته إلا جعل الله له تمكينًا ، وثمة نظرة قاصرة إلى أن القدر الزائد للإنسان هو فضل له وزيادة ! فيحبسه عنده والله ﷻ له حكمة في خلقه وفي العطاء والفضل ، ولهذا لما ظن سعداً أنَّ له فَضلاً على من دونَه من أصحاب النبيِّ ﷺ جاء عنه ﷺ (هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلا بِضُعَفَائِكُمْ)[٩] يعني أن الأمة تنصر وتتمكن ويغدق عليها من الله بنصرة الضعفاء فالضعيف هو الذي تنفر الناس منه ولا تأتي بسد حاجته والقيام عليه ولهذا النبي ﷺ أكثر قيامه بنصرة الضعفاء لأن الغالب على حاله أن يكون مظلوم ولهذا من جملة التمكين نصرة الضعيف وسد حاجته وقضاء الحاجات وحفظ المال العام كما جاء عن النبي ﷺ قال (إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ ;فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[١٠] ولو في حق المرأة من زوجها فالقضاء بين الناس لابد فيه من الإنصاف وعدم الظلم في السجون وتحري عدم المظالم .

٩) رواه البخاري : الجهاد والسير (٢٨٩٦) ، والنسائي : الجهاد (٣١٧٨) ، وأحمد (١٧٣/١).

١٠) رواه البخاري : كتاب فرض الخمس (٢٩٥٠)

ولهذا جاء في الحديث (كَانَتْ الْأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ)[١١].ذكر الأمة لأنها في الغالب هي من تظلم وتضرب إما من سيدها وإما من السوق فهي الجانب الأضعف في المجتمع فانتصر النبي ﷺ لها ولهذا يجب ألا يحتقر الكبير الضعيف ويوكله لغيره يقول أنا عظيم فربما لا تنصر الأمة إلا بنصر الضعيف ، ولهذا ما وكل النبي ﷺ هذا الأمر لغيره ، فكلما باشر الكبير قضايا الصغير بنفسه كان التمكين ; كما جاء في الحديث أن النبي ﷺ لما جاءته بريرة وهي أَمَة كما جاء عن عائشة قَالَتْ (أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِيَ بَرِيرَةَ ، فَأُعْتِقَهَا فَاشْتَرَطَ عَلَيَّ مَوَالِيهَا أَنْ أَعْتِقَهَا وَيَكُونُ الْوَلاءُ لَهُمْ ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : اشْتَرِيهَا وَأَعْتِقِيهَا ، فَإِنَّمَا الْوَلاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ ثُمَّ خَطَبَ النَّاسَ ، فَقَالَ : " مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ؟ فَمَنْ شَرَطَ شَرْطًا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَلَيْسَ لَهُ ، وَإِنْ شَرَطَ مِائَةَ مَرَّةٍ ، إِنَّمَا الْوَلاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ)[١٢] فجعل النبي ﷺ قضية بريرة قضية أمة فهذا من النبي ﷺ انتصارًا للضعيف وهذا من صور التمكين في الأرض والموفق هو من يوفقه الله للنصرة وهذا يتباين بحسب الحال ، هل الإنسان سيد مطاع أو وجيه أو عالم أو نحو ذلك .

الرد على دعوى المتطاولين : أين العدل ؟

أولًا يجب على المؤمن أن ثمة أشياء يجهلها الإنسان في ذاته ولا يدركها فربما يجهل نفسه وإذا جهل نفسه فإنه في غيره من باب أولى ولهذا يأمر الله الإنسان أن ينظر في نفسه ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾(الذاريات :٢١) فجعل للإنسان آية في نفسه وفي الأفاق فجعل فيه من الآيات والعبر ما لا يدركها فضلا عن غيره .

١١) رواه البخاري : كتاب الأدب ، باب الكبر (٥٧٢٤).
١٢) رواه البخاري: باب استعانة المكاتب وسؤاله الناس وأبواب أخرى رقم (٢٤٢٤)، ٩٠٤/٢ ، ورواه مسلم: باب إِنَّمَا الْوَلاَءُ لِمَنْ أَعْتَقَ رقم (٣٨٥٠)، ٢١٣/٤ .

ودوران النصر والتمكين لا يخرج عن سنن الله الكونية والشرعية ، والله لم يمكن لنبي إلا بعد صبر وطول أمد ، يقول الله جل جلاله ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ (يوسف : ١١٠) واليأس الذي يلحق لابد أن يكون معه صبر ; يقول جل جلاله ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ (الأنعام : ٣٤) فوقع في قلوب من كان مع النبي ﷺ من اليأس فصبروا ، وهذا كان في الأنبياء فهو فيمن دونهم من باب أولى .

والحكمة الإلهية بلحوق الأذى في نبي وفي أمته وإطالة الأمد لحكمة الله تعالى ، وهذا يوضح الخلل في نظر الماديين فيخفى عليهم الغيبيات أن الله جعل لأولئك الشهادة فهم شهداء ، وهو ينظر إليهم على أنهم خسروا الدنيا وزهقت أرواحهم وليس لديهم آخرة ، والله يجعل هذه الحكم بمنظارين بمنظار دنيوي عاجل ومنظار أخروي ، فالله يصطفي من عباده من يشاء من الشهداء ولهذا جعل الله من أنبيائه من ينصر في ابتداء أمره ومنهم من يطول به الأمد كحال نوح عليه الصلاة والسلام فقد أبقاه في الأمة ألف سنة إلا خمسين عاما، ومنهم من يجعل أمته تتسلط عليه بالقتل كيحيى وزكريا ومنهم من تتسلط عليه أمته بالحبس كحال يوسف ومنهم بالنفي والإجلاء والأذية كحال نبينا محمد ﷺ ، هذا الأذى أراد الله منه أشياء حتى تأخذ الأمم المتأخرة منه دروس وعبر فإذا كان هؤلاء الأنبياء حصل لهم ما حصل فإن غيرهم من باب أولى .

ولهذا لو أن النبي ﷺ تمكن من غير أذية ، كيف ستجاهد الأمة من بعده ؟ وكيف ستصبر ؟ وكيف ستتمكن ؟ فعلى الإنسان أن يعلم إذا حبس أن أن يوسف قد حبس ، وأن النبي ﷺ حوصر في شعب مكة .

ولهذا قالت عائشة للنبي ﷺ (هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ قَالَ لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا

رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِ هِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)[١٣] هذه المسافة الكبيرة لم يفق فيها النبي ﷺ وهو يسير على قدميه من شدة الهم ولم يأته جبريل في بادئ الأمر وهذا حال النبي ﷺ وهو حبيب الله والله يراه ويرى ما في نفسه ثم يبقيه هذه المسافة فهذا تربية للنبي ﷺ ولمن بعده .

فالقضية ليست ربح دنيوي عاجل وإنما القضية هي ربح أخروي فالنبي ﷺ أوذي أشد الإيذاء من قومه وها هو في مقتل حمزة قال ﷺ (لَنْ أُصَابَ بِمِثْلِكَ أَبَدًا مَا وَقَفْتُ مَوْقِفًا قَطُّ أَغْيَظَ إِلَيَّ مِنْ هَذَا) إشارة إلى شدة الألم فالصفقة مع النبي ﷺ ليست دنيوية وليست المعادلة دنيوية وإنما دنيوية وأخروية وهذا ما ينظر إليه الماديون أو الملحدون يقولون لماذا قتل فلان ولماذا قتل فلان ؟!.. نقول هذه ليست قضية دنيوية ولكنها قضية دنيوية وأخروية .

ثم لتعلم أن ما جعله الله في المسلمين من قتل وهزيمة أقل بكثير عما بين المشركين فيما بينهم من قتل وحروب ودمار والحروب شاهدة على ذلك مثل الإبادات الجماعية والحرب العالمية الأولى والثانية قتل فيها أكثر من ٥٠ مليون ولم يكن السلاح الفتاك قد تطور كما هو عليه ; لهذا ابتلاءات في الأمة تمحيص لها ليتحقق لها العدل ثم يأتي النصر والتمكين .

كذلك أن النفوس إذا تمكنت من البداية من غير تمحيص ربما تنتصر ومعها جشع وطعم فلن تعدل في الغالب لأنها لم تتألم ولكن التمكين بعد التمحيص يكون معه العدل وهذا ما جعله الله مع الأنبياء لما كانت اللآلام ففي أصحاب النبي ﷺ من فقد ماله وترك داره فلما جاء التمكين انتصروا بالعدل ، لهذا لو نصر الإنسان بمجرد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله فتحت له الدنيا وفتحت له الكنوز ووقع منه البغي والأثرة ولكن لحكم إلهية يُمكّن الله الإنسان بعد الابتلاء واللآلام ، وهذا يقول به فلاسفة اليونان أرسطو وسقراط وغيرهم : التطهير النفسي بالآلام يجلب العدل

١٣) رواه البخاري ٣٢٣١ ، ومسلم ١٧٩٥ .

للإنسان فهذا يطهر الإنسان من الدنيا كمن كان ظالم فمات والده أو مات أخوه فيحب العدل ، فمن أين جاء له هذا العدل ؟ فهذا تطهير نفسي وتهذيب للنفوس لتعدل مع غيرها .

السبب الثاني : الأخذ بالأسباب

السبب الثاني من السنن الكونية في التمكين والنصر : الأخذ بالأسباب .

والأخذ بالأسباب يكون أخذًا بالأسباب الشرعية وأخذًا بالأسباب الكونية ، فالأخذ بأسباب القوة من سنن النصر والتمكين وهو مطلب قال الله جل جلاله ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ (الأنفال : ٦٠) وذكر القوة على الإطلاق ثم رباط الخيل وهو أقوى العدد ، ولهذا لما تلا النبي ﷺ الآية قال ﷺ (أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ)[١٤] وجاء عنه ﷺ (مر النبي صلى الله عليه وسلم بنفر يرمون ، فقال : رميا بني إسماعيل)[١٥] وقال ﷺ (وَمَنْ تَعَلَّمَ الرَّمْيَ ثُمَّ نَسِيَهُ فَهِيَ نِعْمَةٌ جَحَدَهَا)[١٦] .

وذكر الله تعالى ﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ وكل الأمر إلى الاستطاعة لأن ربما يكون ما يستطاع لا يكفي فهل يقوم يقاتل ؟ وقد جعل الله القتال في سبيله مستمر لا يتوقف إلا في موضع أو ثغر لأن توقيف الجهاد في جميع الزمان والمكان تطيل لشرع الله ولهذا أمر بالجهاد وجعله دائم وقد جاء عنه ﷺ (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ)[١٧] فالنقص في الماديات يكل إلى الأسباب الشرعية فيكفيه الله به فإذا قصروا في الأسباب الشرعية والأسباب المادية هزموا ولهذا الجهاد دائم كديمومة الجماعة في الصلاة ولهذا جاء ما يؤيد الحديث السابق قال ﷺ (لا تَزَالُ عِصابَةٌ مِن أُمَّتي يُقاتِلونَ على أبوابِ دِمَشْقَ ومَا حَوْلَهُ وعلَى أبوابِ بيتِ المَقْدِسِ ومَا حَوْلَهُ، لَا

---

١٤) رواه مسلم في صحيحه (٥٠٥٥) .
١٥) رواه ابن ماجه (٢ / ١٨٩) و أحمد (١/ ٣٦٤) و الحاكم و قال : " صحيح على شرط مسلم " .
١٦) رواه مسلم الصفحة أو الرقم: ١٩١٩
١٧) رواه مسلم في صحيحه ١٥٢٣/٣، كتاب الإمارة، بَاب قَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم: "لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ"، الحديث رقم ١٩٢٠.

يَضُرُّهُم خِذْلانُ مَن خذَلهم، ظَاهِرِين علَى الحَقِّ إلى أنْ تَقُومَ السَّاعَةُ)[١٨] فالديمومة قائمة ولكن تختلف الثغور لنشر الحق ودفع الظلم فذكر الله جلاله الاستطاعة فربما لا يكفي ، فأمر الله الأمة بالعداد بما استطاع ثم يكفيه بالأسباب الشرعية فإذا قصروا في الأسباب المادية والأسباب الشرعية هزموا ، كما قول الله جلاله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (الأنفال : ١٧) يعنى أنت ترمي لكن الله يسدد رميك وكذلك يسدد قولك ويمدك بمدده إذا استفرغت وسعك ولهذا النبي ﷺ إذا وجد في الأمة ضعفًا في الجوانب المادية وهذا هو الغالب باعتبار أن الكفار متفرغون لأمر الدنيا يزيد النبي ﷺمن التوكل والتجرد .

وقد جاء عن النبي لما نظر لأصحابه وكانوا قلة قال ﷺ (اللَّهُمَّ إِنِي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ اليَوْمِ)[١٩] يعنى استكثر النبي ﷺ من جانب التوكل على الله تعالى مع كونه متوكلًا في الأصل ولكن مع ضعف القدرة المادية ينبغي مزيد تجرد وتوكل ; ولهذا لم يقاتل النبي ﷺ بقوة كانت توازي المشركين .

والله تعالى أنزل النصوص متوافقة مع قدرة النبي ﷺ في الأرض ولهذا أمره بجهاد اللسان ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾(الفرقان : ٥٢) أمر بجهاد اللسان بالحجة والبيان وهو في مكة ولم يأمره بالرمي والقوة فلم يكن معه إلا نفر يسير فلا يوجد رماة ولهذا توافقت النصوص الشرعية مع الأسباب الكونية فجاءت بتدرج فكانت الدعوة سرية ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء:٢١٤) فقام النبي ﷺ بدعوة الأقربين ، ثم أمره الله بالعلانية كما في قوله ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ (الحجر (٩٤-٩٥)) فلما عجز وغلب على ظنه التضييق فهاجر للمدينة وحدث ما حدث له من التمكين .

[١٨]) أخرجه أبو يعلى (٦٤١٧)، والطبراني في الأوسط (٤٧)، وابن عدي في الكامل ٨٤/٧.
[١٩]) رواه البخاري ح(٢٩١٥) .

إلى من يتوجه خطاب الإعداد

في قول الله ﷻ ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (النساء :٥٩) يتوجه الخطاب إلى القادة سواء كانوا حكام أو علماء ، وقد جاء عن كثير من المفسرين أن أولي الأمر هم العلماء والفقهاء كما جاء عن ابن عباس وعبد الله بن مسعود وعكرمة وقتادة ومجاهد وغيرهم وجاء عن البعض أنهم السلاطين وهم الحكام الذين يأمرون ، فعليهم أن يعدوا العدة ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ (الأنفال : ٦٠) فعليهم أن يأمروا الناس بذلك لكل من جعل الله له أمر ، فالأعداء يتربصون بالأمة على اختلاف مواضعهم والأعداء لابد من النظر لهم ليسوا على مرتبة واحدة فثمة عدو يغدر ويخون وعدو قريب يعاهد وثمة عدو بعيد يحارب وهكذا تتباين الأعداء .

أهمية الإعداد المادي

الشريعة جاءت بالإعداد المادي من جهتين : الجهة الأولى السلاح ، والجهة الثانية السياسة الشرعية، بالدعوة إلى الله والتعامل بالسر والجهر كما تعامل النبي وهديه ﷺ فإعداد الأفراد لا تقدم الأمة على قلة ولكن على شيء من الكثرة ، وقد جاء في قول الله ﷻ ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾(الأنفال : ٦٥) قال شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ فكان الواحد مطلوب منه مواجهة عشرة من المشركين فشق هذا على أصحاب النبي ﷺ فنزل التخفيف ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضُعْفًا فَإِنْ تَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ

مَعَ الصَّابِرِين ﴾(الأنفال : ٦٦) فخفف الله تعالى فكان الرجل يواجه الرجلين فالعدد مطلب ، وقال ﷺ (لا يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة)[٢٠] ، وكذلك العُدة فالاهتمام يكون بالرامي ويكون كذلك بما يرمي به ، فالاهتمام بالنبال ،و في رواية البيهقي "أن الله عز وجل يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة " .

والخلل إنما يقع في الأمة بسبب أن منهم من يهتم بالعدد ويهمل العدة ومنهم من يهتم بالعدة ويهمل العدد ، فلابد من السنن الكوني والسنن الشرعي والموازنة بينهما ، فلابد من توازن بينهما كما ينبغي عدم العجب من الكثرة حتى فلا يغتر الإنسان كما حدث من بعض الصحابة كما جاء في قول الله تعالى ﴿ ولَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ (التوبة : ٢٥) فلا يعجب من كثرة فربما انتكس .

وعليه فإن الله تعالى كما أمر بالأخذ بالسنن المادي أمر بالأخذ بالسنن الشرعي.

جهاد الدفع بلا عدة

المؤمن مأمور بالدفع ولو قُتل فجهاد الدفع يختلف عن جهاد الطلب فلا يحتاج إذن ولا عدة ولا عتاد لهذا جاء عن النبي ﷺ كما روى النسائي (عَنْ قَابُوسَ بْنِ مُخَارِقٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : الرَّجُلُ يَأْتِينِي فَيُرِيدُ مَالِي ، قَالَ : ذَكِّرْهُ بِاللهِ ، قَالَ : فَإِنْ لَمْ يَذَّكَّرْ ؟ قَالَ : فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ مَنْ حَوْلَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، قَالَ : فَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَوْلِي أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؟ قَالَ : فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ بِالسُّلْطَانِ ، قَالَ : فَإِنْ نَأَى السُّلْطَانُ عَنِّي؟قَالَ:قَاتِلْ دُونَ مَالِكَ حَتَّى تَكُونَ مِنْ شُهَدَاءِ الْآخِرَةِ أَوْ تَمْنَعَ مَالَكَ)[٢١] ويقول ﷺ (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ)[٢٢] .

٢٠) رواه الإمام أحمد في مسنده عن وهب بن جرير (١ / ٢٩٤) وأبو داود (٢٦١١) والترمذي (١٥٥٥) وابن خزيمة (٢٥٣٨) وابن حبان (٤٧١٧) .
٢١) رواه النسائي (٤٠٨١) .
٢٢) رواه أبو داود (٢ / ٢٧٥) والنسائي(٤٠٩٥) والترمذي (٢ / ٣١٦) وصححه، وأحمد (١٦٥٢) عن سعيد بن زيد.

والدينار ليس أغلى من النفس ولكن الأمة إذا لم تدفع عن نفسها استعبدت فالإنسان يدفع الدنانير في أول الأمر حتى لا يستغل ضعفه ويقتل ويستباح عرضه وماله ،فيدفع ولو كان المال المطلوب انتهاكه قليل ولو قتل ، فالبعض يقول لماذا لا أعطيه مالي وأحفظ نفسي من شر القتل!؟ نقول هذا يدخل في أبواب السياسة الشرعية ، هل المال قليل؟ هل هو عارض ؟ أم أنه سيتسلط عليك؟ لكن يظل الدفع من السياسة الشرعية ولو كان يسير فانتهاك الأموال يسبق انتهاك الأرواح وحتى لا تستباح بيضة المسلمين.

السبب الثالث : حقيقة الأعداء

السبب الثالث من السنن الكونية للنصر والتمكين : حقيقة الأعداء وأنواعهم .

الأعداء تتباين فثمة أعداء قريبون داخل دائرة الإسلام وثمة أعداء بعيدون ، ولهذا بين الله ﷻ أشد الأعداء كما في قوله﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ (المائدة : ٨٢) وبين أيضًا عداوة المنافقين قال ﷻ ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (المنافقون : ٤) فالأعداء على درجات فربما عدو مال وعدو فساق وفجار يتربص بالمال فقط ولا يعادي الدين ومنهم من يتربص بالأمة كما تربصوا بالنبي ﷺ من كل جهة .

والمنافق يريد إضعاف المسلم من كل جهة كما تربصوا بالنبي ﷺ في أحد وتكلموا في عائشة رضي الله عنه وأرضاه ، فحقيقة معرفة الأعداء ومراتبهم من الآثار السياسية وسنن التمكين ، ولابد من النظر لسياسة النبي ﷺ معهم ، فالنبي ﷺ لا يستعدي من لم يظهر له العداوة .

ومن الأعداء المنافقون ومنهم اليهود بنو قريضة وبنو القينقاع ، ومنهم المشركون من مكة والمدينة ومنهم الأبعدين في فارس والروم وغسان ومنهم من دخل في الإسلام ومنهم من بقي على ما هو عليه ولهذا لم يستعدي النبي ﷺ من لم يظهر العداوة .

وثمة جانبين :جانب عقيدة الولاء والبراء وجانب الاستعداء ، فالولاء والبراء لابد أن تعلم أن هذا عدو لك تبغضه لله جلاله وتحب لله جلاله ، أيا كان من اليهود أو النصارى أو غير ذلك .

هذه هي عقيدة الولاء والبراء ، وأما الاستعداء فله سياسة شرعية فلم يعادي النبي ﷺ الجميع فكان يتعامل بالسنة الكونية بحسب القدرة ولهذا بدأ النبي ﷺ بالمنافقين كما أمره الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (التحريم:٩) والغلظة عليهم تكون بالآيات والتقريع والحجج حتى يخمدوا فمن سياسته ﷺ ألا يخرج مكنون المنافقين بإبراز عيانهم وهو يعرفهم ، وقد جاء في الحديث ﷺ (قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَصْحَابِي اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا فِيهِمْ ثَمَانِيَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ)[٢٣] سماهم النبي ﷺ لحذيفة رضي الله عنه ولم يسميهم لغير حذيفة لأنهم يكتمون الكفر ولا يظهرونه وربما لا يعلم بعضهم ببعض فإن تعارفوا وأظهروا النفاق والكفر خرج مكنون القلوب فيكونون عصبة، ويتحدون ولهذا من السياسة الخاطئة إخراج المنافقين فليس من هدي النبي ﷺ ولكن السنة ذكر صفاتهم وأوصافهم العامة وعلاماتهم كالكسل في الصلاة وكره الجهاد وعدم الإنفاق ، فلا نواجه بالأسماء ولكن بالصفات ، هكذا بدأ النبي ﷺ بالمنافقين ثم بعد ذلك اليهود ثم صالح المشركين عشر سنين كما كان في صلح الحديبية وقبل ذلك لم يأتي مكة وبقي ست سنوات لانشغاله بالمنافقين واليهود ولم تكن له قدرة تامة بسبب فمن السنن الكوني أن تتمكن مما أنت فيه أولًا ، ثم تتوجه فيما بعد لما بعده ; فإن التوجه السريع يخالف سنة التدريج .

٢٣) رواه مسلم في صحيحه ج ٨/ ص ١٢٨ حديث رقم: ٧٢١٢